

توظيف الموروث الشعبي في الرواية التاريخية (رواية على جبال الظهرة لمحمد ساري أنموذجا).

مراد ليتيمي
جامعة بومرداس

Résumé :

Cette étude a pour but de montrer les aspects esthétiques du recours artistique au patrimoine populaire dans le roman historique à travers l'œuvre *Sur les montagnes du Dahra* de Mohamed Sari. Comme il s'agit d'un récit historique qui rapporte des périodes vécues par les gens et leur passé, elle est fortement liée au moindre détail de leur vie. Pour que l'auteur puisse dépeindre ces détails d'une manière artistique, il a recouru au patrimoine populaire, en essayant de mettre au jour les contradictions auxquelles s'est confronté le peuple algérien avant et après l'indépendance.

Et parmi les formes d'expression populaire que l'auteur a utilisées et que nous allons tenter d'étudier : le proverbe, la légende, le pèlerinage aux tombeaux des hommes saints et les rituels.

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز جماليات التوظيف الفني للموروث الشعبي في الرواية التاريخية من خلال رواية **على جبال الظهرة لمحمد ساري**، ولأنّ الرواية التاريخية تسرد حقبا من حياة الناس وماضيهم فهي ترتبط أشد الارتباط بأدق تفاصيل حياتهم، وليتمكن الروائي من رسم هذه الدقائق بطريقة فنية استعان بالموروث الشعبي على ذلك. وقد حاول الروائي من خلال الرواية وإثر توظيفه للموروث الشعبي الكشف عن التناقضات التي عاشها المجتمع الجزائري قبل الاستقلال وبعده والتي لا يزال يعيشها.

ومن أشكال التعبير الشعبي التي وظفها الروائي: المثل الشعبي، الأسطورة، التبرك بالأولياء الصالحين، الشعيرة، وهي الأشكال التي قمنا باستخراجها من النصّ وحاولنا دراستها.

تمهيد:

تعدّ الرواية التاريخية من الأنواع الأدبية التي راجت لدى المتلقين والقراء لا سيما في الجزائر التي عرفت انتشار هذا النمط من الرواية لما لها من خصوصيات، تلبي حاجيات المبدع الجزائري الذي كان متلهفا لكتابة التاريخ، وكشف الحقيقة التي لطالما أراد أن يشاركه فيها قراؤه، فنجد أن الروائيين بعد استعادة الاستقلال كانوا يسعون جاهدين لكشف جرائم الاستعمار، وما عاناه الشعب الجزائري من التكيل، ومحاولات التغريب وطمس الهوية بالتفريق وخلق النعرات والعصبيات، كما حذا الروائيون الشباب حذوهم أثناء كتابتهم للروايات التي تناولت أحداث الفتنة التي عاشتها الجزائر، وما أصبح يعرف بالعيشية السوداء أو العشرية الدموية كما يحلو للبعض أن يسميها.

فنجد أنّ الرواية التاريخية خاصة الجزائرية منها، ارتبطت بهاجس الكشف عن الحقائق، وتدوين ما مضى من أحداث لتبقى شاهدا على حقبات من التاريخ عشناها. فالرواية التاريخية "هي تلك التي تتخذ مادتها من التاريخ ولا يدخل فيها ما عالج جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية المعاصرة أو تطرق إلى شيء من الوقائع التاريخية في طريق تناوله للشخصيات والأحداث المتخيّلة التي تدور حول الواقع وقضاياها..."¹ فهي بذلك: "عمل فني يتخذ من التاريخ مادة له، ولكونها لا تنقل التاريخ بحرفيته بقدر ما تصوّر رؤية الفنان له وتوظيفه لهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه أو عن موقف من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة لقوله"².

ورواية (على جبال الظهرة) "لمحمد ساري" تصب في هذا السياق؛ حيث سرد لنا هذا الروائي أحداثاً ترتبط بحقبة الاستعمار، ليسجل لنا بعضاً مما عاناه الشعب الجزائري، في هذه الفترة، وما أبداه هذا الشعب من صمود وبطولة عفوية، ربما لم تبدوا بالنسبة لهم كذلك لكنها تتجلى بالنسبة لنا ملاحم تستحق الإجلال، كما أنّ الرواية تسرد أحداثاً للشخصيات ذاتها بعد الاستقلال وما لاقته من قهر وخيبة أمل، بيد أنّ سرد محمد ساري لم يكن سرداً تاريخياً بحتاً، إنّما عرضه بطريقة فنية موظفاً في ذلك مجموعة من الآليات على رأسها الموروث الشعبي بأنواعه الذي كان له بروز واضح من بداية الرواية إلى نهايتها. فقد استعان الأديب بالتراث الشفوي الشعبي، هذا الجزء الذي لا يتجزأ من وجدان الناس وحياتهم الروحية، وقد وردت مجموعة من الأشكال الشعبية، ومن أمثلة ذلك:

1. المثل الشعبي:

يعدّ المثل الشعبي أكثر الأنواع الأدبية الشعبية جريانا على الألسن ويعرفه محمد رضا الشبيبي قائلا: "الأمثال في كلّ قوم خلاصة تجاربهم ومحصول خبرتهم، وهي أقوال تدلّ على إصابة المعنى وتطبيق مفصل، هذا من ناحية المعنى. أمّا من ناحية المبنى فإنّ المثل يتميّز عن غيره من الكلام بالإيجاز ولطف الكناية وجمال البلاغة. والأمثال ضرب من التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال الأمر الذي يجعلها تتميز عن الأقاويل الشعرية"³.

فيستعلم المثل كحالة ملموسة لإثبات أطروحة أو تنفيدها⁴، ويكون بضرب مثل للقضية المراد إثباتها، فهو يضمّ تجارب الشعوب وخبراتها المتراكمة عبر مسيرتها التاريخية، ممّا يجعل منها منظومة من المعتقدات المشتركة بين أفراد الجماعة⁵. ومع مرور الزمن وتعاقب الأجيال تكتسب الأمثال شرعية وسلطة إقناعية ضمن الجماعة. ولما أدرك الروائي ذلك وظفّ هذا النمط من الأشكال الشعبية لما له من سلطة إقناعية في الثقافة الشعبية الجزائرية. ومن الأمثلة الشعبية التي أوردها الروائي:

✓ "الناس الذين أصابهم الشقاء في رؤوسهم وليس في بطونهم"⁶. يقصد بالناس الذين أصابهم الشقاء في رؤوسهم الناس الذين اختبروا الدنيا فلا تغريهم ولا يأخذهم الطمع، أمّا الناس الذين أصابهم الشقاء في بطونهم فهم الناس الجياع الذين يتكالبون على ملذات الحياة ومطامعها. والروائي ينتقد من خلال هذا المثل ظاهرة الطمع والجشع التي تفتشت في المجتمع الجزائري وجعلت الانسان يطمع في رزق أخيه، وينتهج كلّ السبل حتى المحرمة والممنوعة منها للحصول على المال.

✓ "ألي يفهم بزاف يموت بالزعاف"⁷ يدل معناه على عدم الاكتراث المفرط للأمور وإخلاء سبيل الذهن، لكي يرتاح من هموم الدنيا ومعاناة الأيام التي تزداد يوما بعد يوم. فالإنسان الذي ينهك نفسه وعقله بالتفكير في الأمور التي تنغص حياته غالبا ما يكون مآله إلى المرض والتعب وحتى الموت، دون أن يجني شيئا من ذلك، والتجارب تؤكد أنّ الانسان الواعي والعالم بالواقع وحقائقه والمخلص لمبادئه والشريف في تصرفاته يعيش المعانات والقلق؛ لأنّه يرى الظلم والشرّ لكنه لا يقدر على ردّه، فهي نصيحة للإنسان موجهة عن طريق المثل.

✓ "رموه إلى قرن الدنيا"⁸. ويطلق على الشخص الذي يرسل إلى مكان بعيد؛ حيث ساد اعتقاد بين الناس أنّ الكرة الأرضية موضوعة على قرني ثور، وقرن الدنيا يدلّ على طرفها والقرن الآخر يدلّ على الطرف الآخر، أو ما يصطلح عليه حاليا بالقطبين، وهذا ما

يبرر تفسيرهم للزلزال على أنه حركة يقوم بها الثور؛ لما يتعب أحد قرونيه من ثقل الأرض فيقوم بنقلها إلى القرن الآخر فتتحك وترتج مشكلة الزلزال.

✓ "لو وفرت المال الكافي لذهبت إلى الحج لأغسل عظامي"⁹. ارتبطت هذه العبارة في الثقافة الشعبية بالتعبير عن الحج وعملية تكفير الذنوب، فالإنسان الذي يذهب للحج ويخلص حجه لله تعالى ويأتي بالأركان كاملة يعود كمن لا ذنب له، ويعبر الناس عن ذلك بغسيل العظام وهي استعارة وصف محسوس لشيء معنوي. وقد ارتبط هذا في الثقافة الشعبية بمعنى آخر سلبي، وهو يدل على محاولة التكفير عن الذنوب بعد التماذي فيها، حيث يقوم بعض من أصحاب المال بالحج في آخر حياتهم بعد أن أكلوا أموال الناس بالباطل وأخذوا أرزاقهم وانتهكوا أعراضهم، وفعلوا المحرمات.

✓ "طول عمري وأنا أشمر على ساعدي لأجلب القوت"¹⁰. يدل التشمير على السواعد على الكد وبذل الجهد في كسب الرزق، والقوت يعبر عن الكسب، ولا يقصد بالقوت الطعام فحسب بل متطلبات الحياة بصفة عامة، وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث قصد بالجزء وهو القوت الكل وهو حاجات الإنسان المعيشية، وهنا تلميح إلى أن بعض الناس تكسب رزقها بشق الأنفس، وآخرون يجمعون المال بالتحايل والاستغلا.

✓ "سي علي الذي كان بطلا في الجبال صار خبيثا، يجري وراء المال ووراء نساء وبنات أصدقائه الذين استشهدوا، والذين تركوه حارسا ووصيا عليهن، كمن يترك الذئب حارسا على الدواجن"¹¹. بعد الاستقلال ظهر بعض ممن كانوا في صفوف المجاهدين على حقيقتهم، وبان معدنهم، فبعد توليهم للمناصب على جث رفاقهم في الكفاح، أضحوا يستغلون هذه النفوذ في خدمة أطماعهم وشهواتهم، وأصبحوا يتكالبون على بنات ونساء الشهداء الذين كانوا زملاء في الكفاح، ويعبر هذا المثل على اسناد أمانة لمن لا يتورع عن خيانتها. ومن مفارقات الدنيا أن تعطى مجموعة من الامتيازات للمجاهدين - خاصة ذوي المناصب - من بينها رخصة استغلال مخمرة وهم الذين يحملون لقب مجاهد.

✓ "آه على الزمن الذي يدور"¹². ويطلق على تقلب الأحوال وعدم دوام الحال، وتغير الطباع، فالدنيا تكرم الهين وتهين الكريم، وتغني الفقير وتفقّر الغني، وما تدوم على حال.

✓ "محمد بوحوش يملك اليوم مخبزة قد الدنيا"¹³. تدل العبارة على كبر الشيء واستعظامه في النفس، وهي عبارة تدل على عدم العدل في توزيع الثورات بعد الاستقلال، ففي الوقت الذي بقي كثير من المجاهدي والمخلصين في الجبال والصحاري يعيشون الفقر والفاقة استولى حفنة من الانتهازيين على جل الثورات والممتلكات التي خلفها المعمرون، هذا ما خلف

خيبة أمل كبيرة لدى الناس خاصة الذين كانوا في جبهات القتال، فبعد أن زالت نشوة الاستقلال وعاد الناس إلى ديارهم وأعمالهم بدءوا يكتشفون أنّ أوضاعهم لم تختلف كثيرا عن فترة الاستعمار، وأنّ أحلامهم في الرفاهية والعيش الرغيد ذهبت أدراج الرياح.

✓ "لكن العمش أحسن من العمى" ¹⁴. فالقليل أحسن من لا شيء، والذي يملك بعضا من شيء يبدو سيّدا على من لا يملك شيئا.

✓ "آه على الدنيا الغدّارة" ¹⁵. وهي عبارة تطلق على تقلب الزمان وعدم اتّئمانه، وتعبر عن الحسرة.

✓ "بعض الرجال لا تفهم إلّا بالقزول !!!" ¹⁶. يقصد به الناس الذين لا يفهمون إلّا بالقوة والعنف، فلا تصلح معهم الحجة ولا يقنعهم حق.

✓ "وبعد سنوات قليلة يصبح يضرب المال برجليه" ¹⁷. تدل العبارة على كثرة المال ووفرته.

✓ "يحدث الشيء المكتوب حتى ولو صعدت إلى السماء" ¹⁸. يقصد بهذا المثل أنّ المقدور حادث لا محالة.

✓ "لم يبق له إلّا الماء الساخن" ¹⁹. يطلق هذا المثل على الشخص كبر السن الذي ولم يبق له في الحياة كثير، وهي ترتبط عادة بالإنسان الذي يطمع في الدنيا وملذاتها، رغم تقدمه في السن.

✓ "ليس لديّ القوة لأن لا أرضى وأرفض ما كتب في جبیني" ²⁰. يقصد بما كتب في الجبين أو المكتوب القدر وفي الثقافة الشعبية تسليم مطلق بالقضاء والقدر (المكتوب) لأنّه من عند الله تعالى وليس للمرء الحقّ في الاعتراض عليه.

✓ "يفترش الدراهم لينام عليها" ²¹. يدل هذا المثل على كثرة المال.

✓ "انقلبت الدنيا على رأسها هذه الأعوام... كلّ طير يلغي بلغاه" ²². تدل العبارة الأولى على انقلاب الموازين واختلال النصاب، وتدل العبارة الثانية على كثرة الاختلاف بين الناس وعدم اتفاقهم على رأي واحد.

✓ "شبعوا الخبز وهامم يتناطحون كالثيران" ²³. يدل المثل على الشبع بالمعنى السلبي؛ حيث يصبح الإنسان يتصرف بطريقة سلبية فلا يستثمر قوته وجهده في الأشياء المفيدة، فبعد الشبع واكتمال القوة وبدل العمل والإنتاج يقوم الشخص بتصرفات سلبية أو لا فائدة منها.

✓ "يا الزينح روح عند لالة خيرة، تعطيك خبزة، كلها ثمّ عد إليّ نلعب دورة ثانية لعلك تريح" ²⁴. دلالة على السخرية والاستهزاء بالغير لعدم قدرته وقلة كفاءته، ولأنّه غير قادر على الفوز لضعفه يذهب إلى المرابطة لتعطيه تعويذة علّه يفوز بمعونتها.

✓ "أتحسب أنّ كلّ مرّة عرس" ²⁵. يقصد بهذا المثل أنّه ليس في كلّ مرة يحدث ما ترغب فيه وتشتهيه.

2. الاستجداء بالأولياء والصالحين:

يعدّ الاستجداء بالأولياء والصالحين من المظاهر الشعبية الرائجة في الثقافة الشعبيّة الجزائريّة خاصة أثناء فترة الاستعمار، فبعد أن قامت الإدارة الفرنسية بغلق الكتاتيب التي كانت تلعب دورا تنويريا، وبعد أن هدمت عددا كبيرا من المساجد، انتقلت إلى نشر الخرافات والمعتقدات الوهمية لتشغل الجزائريين عن قضيتهم المركزية وهي استعادة الاستقلال، خاصة وأنّها تدرك قيمة جهاد المعتدي والكافر في الثقافة الإسلامية.

ولكي تحقق ذلك لا بدّ لها من ضرب المسلمين في لبّ عقيدتهم وهو التوحيد، ممّا جعلها تنتشر في المجتمع الجزائري فكرة تقديس الأولياء والصالحين بمساعدة بعض الانتهازيين، الذين أبدوا ولاءهم للاستعمار مقابل امتيازات تحققها لهم، فبدأ انتشار الأضرحة على مستوى ربوع الوطن وانتشر تقديس الصالحين مع إهمال عبادة الله تعالى، ودعوة الأولياء من دونه تعالى، وأصبح الجزائريون يحجون إلى الأضرحة في المواسم المختلفة ويذبحون لغير الله. وقد بدا كلّ ذلك واضحا في الرواية.

كما وظف الرّوائي الموروث الشعبي المرتبط بالأولياء والصالحين بنسبة عالية لما له من حضور في الخيال الشعبي، فقد وردت كثير من أسماء الأولياء الصالحين، ما يدلّ على مدى ارتباط الناس بالولي الصالح وبيكراماته، يأتيه الزوار من كلّ حذب وصوب وكلّهم سعادة لتلبية نداء سيدهم الجليل. إنّ الاعتقاد في بركة الأولياء وأضرحتهم ليس وليد الحاضر إنّما يعود إلى ماض بعيد لا يكاد يعرف أصله ²⁶. ويرى الأستاذ عبد الحميد بورايو أنّ الأولياء هم الرّجال المقربون إلى الله عزّ ذكره، يتصلون به، ولهم قدرة عجيبة، ويقومون بأعمال خارقة في حياتهم وحتّى بعد وفاتهم ويكون ضريحهم رمزا لهذه القدرة على الفعل ²⁷. إنّ نقطة اتصال بين الإنسان وربه، له مقدرة عجيبة على الأفعال الخارقة والمعجزات ²⁸. ومن أمثلة الاستجداء والاستعانة بالأولياء الصالحين في الرواية نذكر ما يأتي:

✓ "قمم جبل سيدي أمحمد وعلي" ²⁹. فعادة ما تكون الأضرحة مبنية على قمم الجبال، فتتميّز بالعلو والشموخ، وترى من مكان بعيد ولا يصل إليها القاصد إلّا بشق النفس.

✓ "بعد قليل سيصلون إلى المرباط سيدي أمحمد وعلي" ³⁰. مثل الوصول إلى المرباط مهمة شاقة لبعده وصعوبة المسالك المؤدية إليه، لكن الناس كانت ترى ضرورة في تحمل هذه المشقة.

✓ "ومن فوقه الزوجة التي استسلمت للدعاء، تطلب الذود من الله والأولياء الصالحين..." ³¹. كان الناس يقصدون الأضرحة للدعاء والابتهاال، فكانوا يدعون الله تعالى ويدعون معه الولي الصالح علّ الله تعالى يقبل دعاءهم لأنهم يطلبونه بجاء الأولياء الصالحين. ومنهم من يطلب من الولي مباشرة معتقدا فيه الكرامة والقدرة.

✓ "يقع كوخ امرأة هرمة وكيلة الولي" ³². والوكيلة أو الوكيل هو الشخص الذي يلتزم بالسهر على ضريح الولي وعلى راحة زواره، لكن عادة ما يكون الوكيل من أسرة مرابطة؛ لأنّ الولي يشكل مصدر ربح وثروة خاصة في فترة الاستعمار وبعيد الاستقلال.

✓ "وصل الركب إلى المرباط" ³³. يطلق اسم المرباط على شخص ينتمي إلى نسب المرباطين، وهم أناس ارتبط اسمهم في الثقافة الشعبية بالكرامات القرب من الله تعالى، بيد أنّ عدیدا من الذين ينتسبون للمرباطين استغلوا هذه المكانة بين الناس وتقدير الناس لحملة القرآن الكريم للسطو على أرزاقهم وممتلكاتهم، فكان المرباط يخص بأحسن المأكولات، والأراضي والمنازل، مقابل كتابة تعويذة أو قراءة بعض من القرآن. ففي الوقت الذي كان الناس يعيشون الفقر والجوع، كان المرباط وأهله يعيشون في رخاء ونعيم.

✓ "يقام نوال هذا الولي في الصيف بعد اتمام الحصاد والدرس. يأتيه الزوار من كلّ حذب وصوب، يمرحون لمدة يومين ثمّ يعودون إلى مغاورهم، سعداء لتلبية نداء وليهم المفضل لدى الله والرسول والصالحين" ³⁴. النوال هي أيام احتفال معلومة من السنة تقام على شرف الولي، يأتي فيها الناس من مختلف المناطق، جالبين الأضاحي والهدايا والأكل والشراب، فيسهرّون ويمرحون، ويتبركون ببركات الولي متفائلين أنّ يعود عليهم ذلك بالخير العميم. وقد كان ولا يزال هذا النوع من الممارسات متداولاً في الثقافة الشعبية الجزائرية؛ حيث يجعلون لكلّ ولي أياماً مخصوصة من السنة يقومون فيها بمثل هذه الاحتفالات.

✓ "زارت من الأولياء الصالحين ما سمحت لها ظروفها الشاقة أن تزور، واستشارت كلّ الدراويش الذين تعرفهم...زارت عدّة أولياء ودراويش تبحث عن الشفاء" ³⁵. لما كثر الجهل وتفشى المرض بين الناس ولم تسعهم الحيلة للعلاج كانوا يتوجهون بحثاً عن العلاج عند الأولياء وهم أشخاص صالحون وهبوا حياتهم لله على وامتوا على ذلك، والدراويش وهم المجانين الذين يمارسون بعض الطقوس الغريبة فيعتقد الناس فيهم القدرة على العلاج.

✓ "اتجه الجميع إلى المرباط لزيارة الضريح"³⁶. كانت زيارة الأضرحة من الممارسات المتداولة بشكل كبير في الثقافة الشعبية، طلبا للبركة والخير، وكانت زيارة الأضرحة متداولة في المناسبات المختلفة، أو في أوقات الشدة، المرض والفقر³⁷... إلخ.

✓ "نزعوا أحذيتهم على عتبة الباب وولجوا داخل البيت. على اليمين ضريح كبير، مغطى بأبهى أنواع الأقمشة الحريرية الملونة بألوان كثيرة مختلفة... لا يأتي زائر إلا ومعه قطعة حرير أو نسيج من الجوخ. يتطرف الضريح هلالان، لونهما أبيض. الأول على رأس الوالي والثاني عند رجليه... في ركن منزوي حفرة صغيرة مملوءة ببقايا الشمع... تقدم الجد وقبّل الضريح بشفتيه، تناول قطعة من القماش الحريري ومسح بها وجهه مقبلا إياها، متمتما بكلمات وعبارات، طالبا الرحمة والمغفرة والنجاة لابنه، من الله وأوليائه الصالحين: يا سيدي "أحمد وعلي" تقبل زيارتنا ودعوتنا واستجب لنا فنحن عبادك لن ننساك حتى الموت... وتبعته النساء الثلاث، تقبلن الضريح، مدممات بدعوات طويلة، متيقنات بأنّ الولي سيستجيب لهن، وأنه في الاستماع... يتأملون الضريح وعيونهم تلمع بالرحمة والشفقة والأمل"³⁸. تدلّ هذه الممارسات على مكانة الأولياء الصالحين في الثقافة الشعبية: فنزع الأحذية، وتغطية الضريح بالقماش الرفيع، وتقبيل الضريح والتمسح به، كلّها ممارسات تدل على عظم هذه المكانة.

✓ "ثمّ استقرت قرب وال في قربي قديم"³⁹. يقصد هنا شخصية لالة فاطمة التي وهبت حياتها لخدمة الولي وزواره، فبعد وفاة زوجها لجأت إلى ضريح الولي لتسكن بجانبه، وترافقه وتسهر على راحة زواره.

✓ "ذهبت إلى ذلك المرباط وسكنت هناك عدّة أيام"⁴⁰. كان المرباط مقصدا للناس يتقربون منه طلبا للشفاء من المرض والرزق بالذرية⁴¹... إلخ.

✓ "لكنه يربح رزقه من الكتابات التي يكتبها للمرضى"⁴². كانت ظاهرة كتابة التمايم أو ما يعرف في الدارجة بالحروز ظاهرة متفشية في المجتمع الجزائري خاصة أثناء الاستعمار وفي السنوات الأولى بعد الاستقلال، معتقدين فيها الشفاء، وقد ارتبطت كتابة التمايم بالمرباطين الذين اتخذها بعضهم وسيلة للتكسب.

✓ "من يقول بأنك ستوفي بعهدك؟ حق ربي...حق سيدي امحمد وعلي"⁴³. كان الحلف بالأولياء والصالحين عادة منتشرة في الثقافة الشعبية، ولا تزال هذه الظاهرة متداولة بين كبار السنّ، وهناك من يحلف بأولاده وبالنعمة وبالقرآن الكريم وأشياء أخرى.

✓ "ما زال نوال سيدي أمحمد وعلي لم يتم بعد...والعادة تقول بأنّ الأعراس تتم بعد النوال...إنّه جدنا جميعا ولا يستحسن لنا أن نغضبه"⁴⁴. يعدّ الخوف من لعنة الولي ولعنة

المرباط ظاهرة معروفة في الثقافة الشعبية، لهذا كان الناس يتقربون لهم بأجود ما لديهم، ويتجنبون إغضابهم، هذا ما جعل بعضا من المرباطين يستغل ذلك لتحقيق مصالحه؛ وقد شاع كل ذلك بعد غلق الكتاتيب ومصادرة المساجد وهدم دور العلم من طرف الاستعمار الفرنسي. وهي الظواهر التي كانت جمعية العلماء المسلمين تكافحها قبل وبعد الاستقلال، علما منها بدور التوحيد في توحيد الصفوف.

3. الأسطورة:

تعد الأسطورة من الأشكال الأدبية الشعبية الأكثر تأثيرا، في الأدب الحديث على اختلاف أنواعه وأغراضه، شعرية كانت أم نثرية، مما يبرز الحضور القوي لهذا الشكل من الأدب الشعبي في الوعي البشري، فقد كان الإنسان القديم يحاول دائما تفسير الطبيعة تفسيراً يجعله يقبل هذا العالم الذي يعيش فيه، ورغم مرور الزمن وتطور الإنسان بقي هذا الأخير غير قادر على الاستغناء عن التفكير الأسطوري، فأصبح ينسج أساطير تتماشى ونمط الحياة العصرية.

والأسطورة أول الأشكال الأدبية ظهوراً على الإطلاق، لقد ظهرت عندما كان الإنسان يحاكي الطبيعة، إنها نظام فكري متكامل، استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، والأحاجي التي يتحداها بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه^{4 5}.

ويعرفها إيريش فروم بقوله: "إنَّ الأسطورة، كالحلم، تعرض قصة تحدث في المكان والزمان، قصة تعبر، باللغة الرمزية عن الأفكار الدينية والفلسفية، وعن تجارب الروح التي تكمن فيها الدلالة الحقيقية للأسطورة"^{4 6}.

لكن ما تجدر الإشارة إليه هو أنَّ الأسطورة تختلف من مجتمع لآخر ومن بيئة لأخرى، فالأسطورة تعبر عن انشغال الإنسان الناتج عن احتكاكه بالبيئة التي يعيش فيها، مما جعل الأساطير المتداولة في القطر الجزائري تتميز عن غيرها من الأساطير في العالم. رغم تحفظ بعض الباحثين حول وجود الأساطير في العالم العربي بما فيها الجزائر على اعتبار أنَّ الأسطورة حكاية خرافية أبطالها آلهة وأنصاف آلهة وهذا الذي لا يتوفر في مرويّات العالم العربي والجزائري. وقد وردت في الرواية أمور خارقة نحو:

✓ **أسطورة عين العروسة** التي تسكن روحها بئراً صغيرة تقع في أعالي القرية، ويروي جيل بعد جيل بأنها: "انزلقت وغرقت في البئر، ... كانت في موكب الزفاف فوق حصان أصيل، توقفوا لشرب الماء، اقتربت من البئر، وسقطت داخله، وماتت غرقاً، ..." ^{4 7}

نجد في هذه الأسطورة عنصران مهمان في المخيال الشعبي الجزائري، هما العروس وعين الماء، فالتراث الشعبي الجزائري يعجّ بالحكايات والأساطير التي ترتبط بهما كونهما رمز الحياة، الخصوبة، والبقاء.

والماء: هو الذي يبقى الكائنات حية، ويجعلها تنمو وتنتشر، مصداقا لقوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»⁴⁸. وقوله جلّ وعلا: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ»⁴⁹.

لقد أردك الإنسان قديماً دور الماء العذب في الحياة لذا قدّسه وبجله⁵⁰. إنّه القوّة والطهارة التي تتجلّى في الجانب الرّوحي مثلما تتجلّى في الجانب المادي. ترمز المياه محلياً إلى القوّة والحياة، إنّها رمز الإشراق والإشعاع والنّور، ويمكن لنا أن نلخص مدلولاتها في ثلاثة عناصر مختلفة هي:

- الماء منبع الحياة.
- الماء وسيلة تطهير.
- الماء أصل الانبعاث.

والماء "قد يكون أكبر قوّة تدميرية عندما تحركه العاصفة، أو حين يفيض نهر طافح على ضفافه، ولهذا قد يكون التعبير الرمزي عن الرعب والشواش وكذلك عن الراحة والأمن"⁵¹.

"والمثال التوضيحي الآخر على المبدأ ذاته وهو رمز الوادي. فالوادي المحصور بين الجبال قد يوقظ في نفسنا الشعور بالطمأنينة والراحة، والحماية من المخاطر الخارجية. إلّا أنّ الجبال الحامية قد تعني كذلك أسوارا عازلة لا تسمح لنا بالخروج من الوادي بذلك يمكن أن يصبح الوادي رمزا للأسر. والمعنى الخاص للرمز في أي مكان مفترض لا يمكن أن يتحدد إلّا من السياق الكامل الذي يظهر فيه الرمز، وعلى أساس التجارب المهنية للشخص الذي يستخدم الرمز"⁵².

أمّا **العروس**؛ فهي رمز التنازل والتكاثف والنماء والبقاء، لهذا كان التفضيل في الثقافة الشعبيّة كما في الثقافة العامّة للمرأة الودود الولود. والعروس التي تجلب الماء تكون قد جلبت الخير والأمان إلى الدّار، فيكون ذلك فأل خير يمهد لحياة سعيدة وهنيئة.

✓ ومن الأساطير الواردة في الرواية **أسطورة الجنيّة** التي نسجت حول شخصية لالة فاطمة وكيلا الولي، "بعدما بحثوا طويلا عن أصلها، انتهوا بالقول بأنّها جنيّة، أرسلت من السماء هدى للناس"⁵³. فقد كانت تنتقل في الجبال والاحراش، تحمل المؤونة للمجاهدين، ففي الوقت الذي كانت القنابل والرصاص تنهطل على المجاهدين وهم غير قادرين على المناورة كانت الوكيلا تنتقل لنقل الطعام لهم، كما أنّ حياة الوحدة التي كانت تعيشها وبقائها في الجبال تصارع المرض، جعل الناس يعتقدون أنّها جنية وإلّا ماذا يفسّر عدم إصابتها أثناء القصف، وبقائها رغم

طول المرض ووحدتها الدائمة. والجنيّة كانت في الثقافة الشعبية كانت ترتبط بمدلولات القوة والبقاء.

4. **الشعيرة:** ترتبط مدلولات الشعيرة بمعاني الطاعة، والقيام بممارسات تعبدًا وتقريبًا من المعبود، حيث ورد في معجم أصول الفقه "الشعيرة: الطاعة، الفريضة. ما أمر الشرع، أو ندب القيام به، من أحكام، فيها إشعار وإعلام بمبادئ الإسلام، ووكلياته العامة. مثالها الحجّ، فإنّه شعيرة، أمر الشارع القيام بها، لما فيها من إشعار بمبادئ التوحيد، والانقياد، والطاعة لله وحده، جلّ جلاله، ويعد الأذان شعيرة من شعائر الاسلام، لاشتماله على معاني التوحيد والاستسلام والانقياد لله" ⁵⁴.

ويعبر إيريش فروم عن الشعائر المرتبطة بالمخيال الشعبي بقوله: "ثمة نوع آخر من الرمز، نادرا ما تكون دلالاته أقل أهمية في تاريخ الإنسان من دلالة الرموز التي تحدث في الأحلام أو الأساطير أو الحكايات العجيبة. وأنا أشير هنا إلى الشعيرة الرمزية التي يمثل فيها التصرف، لا الكلمة أو الصورة، الخبرة الداخلية. فنحن جميعا نستخدم هذه الشعائر الرمزية، في حياتنا اليومية، فإذا خلعنا قبعتنا إشارة على الاحترام، أو أحنينا رأسنا إشارة إلى التوقير، وإذا تصافحنا تعبير عن المشاعر الودية" ⁵⁵. ومن الشعائر الواردة في الرواية:

✓ "جرت العادة أن يغطسوا في الماء البحري سنة رجلا وسنة أخرى امرأة كهدية للولي" ⁵⁶. يعد هذا الطقس من الطقوس التي لم تعد متداولة بين أوساط الشعب الجزائري، وهي تدل على التضحية والهبة، من أجل الحصول على الرضى والقبول.

✓ "يقضي جمهور الزوار ليلة في ديار المرباط" ⁵⁷. وهي من الطقوس الشائعة بكثرة بين شرائح واسعة من الشعب الجزائري؛ حيث ينتقل الناس إلى مكان مخصوص في زمن مخصوص من السنة ويقضون الليلة بجوار الولي ساهرين يتسامرون ويتذرعون راجين الفلاح في حياتهم، والصحة في أبدانهم.

✓ "اختارها الحظ لأن تكون هي الهدية المشرفة... غطسوها في البحر، وخرجت ترتعش بالبرد" ⁵⁸. كان الناس يعتقدون أنّ الذي يُختار للغطس في ماء البحر قد اختاره الحظ ويعدّ ذلك شرف كبير بالنسبة له.

✓ "تقدم الجد وقبّل الضريح بشفتيه، تناول قطعة من القماش الحريري ومسح بها وجهه مقبلا إياها، متمتا بكلمات وعبارات" ⁵⁹. راجت زيارة الأضرحة بين الناس بشكل كبير في فترة الاستعمار وبقيت متداولة إلى يومنا هذا، وتصاحب هذه الزيارة طقوس تعبّر عن تبجيل صاحب الضريح وتوقيره، من خلال تقبيله والتمسح به وطلب الحاجات منه.

✓ "نهضت زوجة عبد القادر، وحلت وشاحها من رقبتها وعقدته حول أحد الهلالين، متأملة بصمت، تتمتع بعض الدعوات"⁶⁰. تعد هذه الممارسات من الطقوس التي يقوم بها الزوار لضريح الولي إلى جانب طقوس أخرى.

الخلاصة: من خلال هذه الدراسة المتواضعة تجلت لنا مجموعة من النتائج نراها تستحق الاهتمام ولعل أهمها:

- نجاح الروائي محمد ساري في توظيف الموروث الشعبي الأصيل، الذي تزخر به الجزائر، واستثماره في تشكيله لقلب الرواية. فجاءت مفعمة بأشكال التعبير الشعبي من أمثال، أساطير، استنجاد بالأولياء والصالحين، وشعائر...الخ.
- الأدب الشعبي هو خلاصة تجارب الشعب، يعبرون من خلاله عن آمالهم وطموحاتهم. ليكون بمثابة جسر تعبر من خلاله الأجيال.
- استعان الروائي بالأدب الشعبي لتمرير مجموعة من الرسائل والانتقادات للمجتمع، ولبعض الشخصيات الانتهازية فيه.
- كشفت لنا الرواية عن جانب من جوانب معانات الشعب الجزائري، إذ صورت لنا حالة السجناء في المحتشدات والسجون، وشوق وحنين أسرهم الذي يزداد يوما بعد يوم، كما وصفت برودة فصل الشتاء التي تصفع الوجوه وتقطع الأيدي. إنه يصف حالة البيوت المهدمة والحقول المتلفة والثياب الممزقة والمرقعة التي لا تملك قوة الحماية بل ولا تقوم حتى بستر الأجسام النحيفة.
- كشفت الرواية جانبا من بطولة الشعب الجزائري، وهي بطولة عفوية نابغة من صميم الذات الشعبية، فكان الواحد منهم يموت شرفا ويضحي طوعا ولا يطلب على ذلك أجرا.
- عبّرت الرواية عن خيبة أمل كثير من الجزائريين بعد الاستقلال؛ حيث استأثرت حفنة من الانتهازيين بثروات الجزائر، وهمش المخلصون الذين ضحوا بأنفسهم من أجل الأرض والعرض.
- أظهرت الرواية التناقضات التي يعيش فيها المجتمع الجزائري؛ مجتمع يستغل فيه الأخ أخاه، ويستغل المرابط الدين للتكسب، وينقلب المجاهد على رفاقه طلبا لشهوات الدنيا، ويشترى الحاج لقبه ليخدع الناس.

الهوامش:

¹ عبد الله حسين البار، الرواية و التاريخ، كلية الآداب، جامعة صنعاء، ص03.

² المرجع نفسه، ص03.

³ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، القاهرة، ص174.

⁴ محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، ط01، الدار البيضاء، 2005، ص32.

-
- ⁵ ينظر أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج، ط01، الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء، 2007، ص81.
- ⁶ محمّد ساري، على جبال الظّهرة (رواية)، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ص12.
- ⁷ الرواية، ص31.
- ⁸ الرواية، ص102.
- ⁹ الرواية، ص108.
- ¹⁰ الرواية، ص108.
- ¹¹ الرواية، ص108.
- ¹² الرواية، ص108.
- ¹³ الرواية، ص109.
- ¹⁴ الرواية، ص114.
- ¹⁵ الرواية، ص115.
- ¹⁶ الرواية، ص129.
- ¹⁷ الرواية، ص132.
- ¹⁸ الرواية، ص139.
- ¹⁹ الرواية، ص148.
- ²⁰ الرواية، ص148.
- ²¹ الرواية، ص154.
- ²² الرواية، ص161.
- ²³ الرواية، ص167.
- ²⁴ الرواية، ص168.
- ²⁵ الرواية، ص168.
- ²⁶ أحمد بوحسن، في المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمان، ط01، الرباط، 2005، ص146.
- ²⁷ عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص28.
- ²⁸ محمد الجوهري، علم الفولكلور، دار المعارف، ط01، القاهرة، 1975، ص413.
- ²⁹ الرواية، ص07.
- ³⁰ الرواية، ص09.
- ³¹ الرواية، ص11.
- ³² الرواية، ص11.
- ³³ الرواية، ص11.
- ³⁴ الرواية، ص13.
- ³⁵ الرواية، ص13.
- ³⁶ الرواية، ص14.

³⁷ Slimane Rahmani, Coutumes de kabylie (mariage- grossesse-naissance-enfance), édition Belles-lettres, Algérie, P26127.

³⁸ الرواية، ص15.

³⁹ الرواية، ص70.

⁴⁰ الرواية، ص70.

⁴¹ Marcel Devulder , la Magie en kabylie (Retuels magiques des fammes kabyles), édition Belles-lettres, Algérie, P07.

⁴² الرواية، ص104.

⁴³ الرواية، ص119.

⁴⁴ الرواية، ص121.

⁴⁵ فراس السواح، مغامرة العقل الأولى (دراسة في الأسطورة: سوريا و بلاد الرافدين)، دار الكلمة للنشر، ط01.

بيروت، 1970، ص15.

⁴⁶ إيريش فروم، اللغة المنسية (دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة و الأساطير)، تر محمود منقذ

الهاشمي، ط01، دار الحوار، سوريا، 2011، ص165.

⁴⁷ الرواية، ص25.

⁴⁸ سورة الأنبياء، الآية رقم30.

⁴⁹ سورة النور، الآية رقم45.

⁵⁰ ينظر، محمود مفلح البكر، الروح الأخضر (احتفالات الخصب في العادة والمعتقد)، دار الحضارة الجديدة، ط01،

بيروت 1992، ص14.

⁵¹ إيريش فروم، اللغة المنسية (دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير)، ص31.

⁵² إيريش فروم، اللغة المنسية (دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير)، ص32.

⁵³ الرواية، ص141.

⁵⁴ قطب مصطفى سانو، معجم مصطلحات أصول الفقه، دار الفكر، ط01، دمشق، 2000، ص249.

⁵⁵ إيريش فروم، اللغة المنسية (دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير)، ص202.

⁵⁶ الرواية، ص13.

⁵⁷ الرواية، ص13.

⁵⁸ الرواية، ص13.

⁵⁹ الرواية، ص15.

⁶⁰ الرواية، ص15.